مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches And Scientific Activities
ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

تحولات النثر القصصي في العصر المملوكي: مقاربة سوسيو– سياسية في الأنساق والدلالات

آمال المبروك حسن سمهود

قسم اللغة العربية – كلية التربية زوارة – جامعة الزاوية. ليبيا

amal.samhod@gmail.com

الملخص:

هدف البحث الى استجلاء تحولات النثر القصصي في العصر المملوكي عبر مقاربة سوسيو– سياسية تسعى لتجاوز الأحكام النقدية التقليدية التي حصرت أدب هذه الحقبة في دائرة الجمود. وتكمن مشكلة البحث في رصد الفجوة بين التشكيل الجمالي (الزخرفة اللفظية) وبين الوظيفة النقدية والأنساق المضمرة التي مررها الأديب المملوكي كاستراتيجية للمراوغة والمقاومة الرمزية ضد السلطة العسكرية الوافدة. واعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي متكاملا مع معطيات النقد الثقافي وعلم الاجتماع الأدبي لتفكيك بنية المقامات، والحكايات الرمزية، والسير الشعبية. وخلص إلى نتائج عديدة، أبرزها أن النثر المملوكي كان نثرا حيا استثمر بلاغة الأقنعة والرمز الحيواني لتمرير مواقف فكرية تجاه الاستبداد والفساد الإداري كما نجح في تمثيل طبقات الهامش وتصوير التحولات القيمية والطبقية التي أفرزتها الأزمات السوسيو– اقتصادية؛ مما يؤكد أن هذا المنجز السردي قد مهد بآليات معقدة لظهور ملامح القص العربي الحديث.

الكلمات المفتاحية :النثر المملوكي، الأنساق السياسية، التمثيل الاجتماعي، المقامة، بلاغة الأقنعة.

Abstract:

This study aims to explore the Transformations of Narrative Prose during the Mamluk era through a Socio-Political approach, seeking to transcend traditional critical judgments that limited the literature of this period to stagnation. The research problem lies in monitoring the gap between aesthetic formation (verbal ornamentation) and the critical function and hidden paradigms passed by the Mamluk writer as a strategy for maneuvering and symbolic resistance against the incoming military authority. The study adopted the Descriptive-Analytical method, integrated with the data of Cultural Criticism and the Sociology of Literature, to deconstruct the structure of Maqamat, symbolic fables, and folk biographies. The research reached significant results, most notably that Mamluk prose was a living prose that invested in the rhetoric of masks and animal symbolism to pass intellectual positions towards tyranny and administrative corruption. It also succeeded in representing the marginalized classes and depicting the moral and social shifts produced by socio-economic crises, confirming that this narrative achievement paved the way for the emergence of modern Arabic fiction.

Keywords: Mamluk prose, political patterns, social representation, maqama, rhetoric of masks.

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches
And Scientific Activities

ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

المقدمة:

يمثل العصر المملوكي في التاريخ العربي الإسلامي حقبة استثنائية اتسمت بالسيولة السياسية والتعقيد الاجتماعي، حيث أفرزت سيطرة الطبقة العسكرية الوافدة واقعا حضاريا جديدا ألقى بظلاله الكثيفة على النتاج الأدبي بشتى فنونه. وفي قلب هذا الحراك، برز النثر القصصي ليس بوصفه أداة للتسلية أو الوعظ المباشر فحسب، بل كاستراتيجية فنية معقدة لاحتواء أزمات العصر واستنطاق المسكوت عنه في بنية المجتمع؛ فقد استطاع هذا الجنس الأدبي أن يطور قوالبه التقليدية لتستجيب لمتطلبات مرحلةٍ قلقة، تحول فيها القص من حكاية عابرة إلى وثيقة سوسيو– سياسية مراوغة، تكتنز بالأنساق والدلالات التي تعكس موقف المثقف من السلطة والمجتمع على حد سواء. وتكمن الأهمية المنهجية لهذا البحث في كونه يسعى لتجاوز الرؤية النقدية التقليدية التي حصرت الأدب المملوكي في دائرة الجمود والزخرفة، لينفتح على مقاربة حديثة تدرس تحولات هذا النثر في ضوء سياقاته الاجتماعية والسياسية؛ فالمقام المملوكي، والحكاية الشعبية، والرسائل القصصية الرمزية، لم تكن سوى وسائط ثقافية استثمرها الأدباء لتمرير خطابات نقدية واعية، حيث تتماهى الشخصية القصصية مع إشكالات الواقع، وتتحول الحبكة إلى فضاء لتفكيك التناقضات بين (النخبة العسكرية) و(الرعية المدنية). إن دراسة هذه التحولات تتيح لنا فهم كيف تحول المتخيل القصصي إلى سلطة مضادة قادرة على رصد التحولات الطبقية، وتصوير آليات الصراع والتعايش، وصياغة هوية أدبية صمدت أمام أعاصير التاريخ. إن هذا البحث ينطلق من رؤية نقدية ترى في النص القصصي المملوكي بنية مشفرة تتطلب غوصا في أعماق أنساقها المضمرة؛ لاستكشاف الدلالات السياسية التي صاغت علاقة الأديب بالسلطة، والدلالات الاجتماعية التي رسمت ملامح الحياة اليومية بآلامها وطموحاتها. ومن هنا، يسعى الباحث إلى دحض فرضيات الانحطاط، مبرهنا على أن النثر المملوكي كان نثرا حيا استطاع بذكاء لغوي فذ أن يزاوج بين جماليات الشكل وخطورة المضمون، ليقدم صياغة فنية فريدة للحظة تاريخية مفصلية في مسيرة الحضارة العربية.

مشكلة البحث:

تتشكل مشكلة البحث في تلك المفارقة النقدية الحادة بين ما وصفت به الدراسات التقليدية النثر المملوكي من جمود أدبي وانحصار في الزخرفة اللفظية، وبين حقيقة ان النثر بوصفه مختبرا

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches
And Scientific Activities

ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

سوسيو–سياسيا شديد الديناميكية. حيث تكمن الإشكالية في أن القراءة السطحية للنثر القصصي المملوكي قد غيبت أبعاده الوظيفية؛ إذ لم يكن القص في هذا العصر مجرد اجترار للمقامات والحكايات السابقة، بل كان استراتيجية مراوغة لامتصاص صدمات الواقع السياسي القائم على سلطة عسكرية (المماليك)، وواقع اجتماعي محمل بالتناقضات الطبقية.

إن المشكلة الحقيقية التي يتصدى لها البحث هي استجلاء الأنساق المضمرة التي استعملها الأدب القصصي لتجاوز الرقابة السلطوية؛ فكيف استطاع هذا النثر أن يتحول من فن شكلي إلى سلطة نقدية قادرة على تمرير دلالات سياسية واجتماعية عميقة تحت ستار الفكاهة أو الكدية أو الخيال الشعبي؟ وما هي التحولات البنيوية التي طرأت على القصة المملوكية لتصبح قادرة على استيعاب تلك الدلالات في ظل عصر يوصف زورا بالانحطاط؟

بناء على المشكلة المطروحة، يسعى البحث للإجابة عن التساؤلات الجوهرية الآتية:

1. ما هي ماهية التحولات البنيوية التي طرأت على النثر القصصي المملوكي (المقامات، الحكايات الرمزية، السير الشعبية) وكيف استجابت هذه التحولات لمتطلبات الواقع السوسيو–سياسي الجديد؟
2. كيف تجلت الأنساق السياسية داخل المتخيل القصصي، وإلى أي مدى استطاع الخطاب القصصي صياغة رؤية نقدية لعلاقة (المثقف العربي) بـ (السلطة المملوكية الوافدة)؟
3. ما هي ملامح التمثيل الاجتماعي في النثر القصصي آنذاك، وكيف عبرت الشخصيات القصصية (كالبطل الشعبي، والمحتال، والفقيه) عن الصراع الطبقي والتحولات القيمية في المجتمع المملوكي؟
4. ما هي الدلالات الرمزية الكامنة خلف الإغراق في المحسنات البديعية والزخرفة اللفظية، وهل كانت هذه الزخرفة مجرد حلية جمالية أم قناعا أسلوبيا لتمرير مواقف فكرية وسياسية معارضة؟

اهداف البحث

1. رصد التحولات البنيوية في السرد المملوكي :تتبع التطور الذي طرأ على الأجناس النثرية القصصية (مثل المقامات، والحكايات الشعبية، والقصص الرمزي) والكشف عن كيفية تطويع تقنياتها الفنية لتستوعب المتغيرات الحضارية الجديدة.

تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

2. استجلاء الأنساق الثقافية والسياسية المضمرة :تحليل النصوص القصصية للكشف عن الرسائل النقدية المبطنة والمواقف الفكرية تجاه السلطة المملوكية، والتي مررت بذكاء أدبي بعيدا عن الرقابة المباشرة.
3. تحليل تمثيلات الواقع الاجتماعي وصراعاته :الكشف عن كيفية انعكاس البنية الطبقية للمجتمع المملوكي داخل القص، ورصد صورة الهامشيين والعامة وصراعهم مع النخبة العسكرية، وتبيان دلالات ذلك اجتماعيا.
4. تفنيد مقولة الانحطاط الأدبي :إثبات الحيوية الوظيفية للنثر القصصي المملوكي، والبرهنة على أن الإغراق في الشكل والزخرفة لم يكن ضعفا، بل كان قناعا أسلوبيا واستراتيجية واعية لمعالجة قضايا سياسية واجتماعية معقدة.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في سعيه العلمي نحو إعادة قراءة المتن النثري المملوكي بمنظار نقدي مغاير، يتجاوز الأحكام المعيارية الجاهزة التي حصرت أدب هذه الحقبة في قوالب الزخرفة اللفظية والجمود الفني، حيث تتبثق قيمته المعرفية من كونه يسلط الضوء على الوظيفة السوسيو – سياسية للنثر القصصي، بوصفه أداة لمقاومة التهميش الثقافي في ظل سيادة الطبقة العسكرية الوافدة، كما تبرز الأهمية المنهجية في تطبيق مقاربة الأنساق والدلالات التي تربط بين التشكيل الجمالي للقصة وبين التحولات الطبقية والقيمية للمجتمع المملوكي، وهو ما يقدم إضافة نوعية للمكتبة العربية عبر كشف النقاب عن المسكوكات الثقافية والرسائل المشفرة التي مررها الأديب المملوكي بذكاء أسلوبي فذ؛ وبذلك يكتسب البحث صبغة توثيقية بالغة الأهمية من خلال استنطاق الحكايات والمقامات كشهادات عيان فنية على تاريخ المسكوت عنهم، مما يفتح آفاقا جديدة أمام الباحثين لإعادة تقييم أدب العصور المتأخرة ليس كأدب اجترار، بل كأدب حيوي استطاع تطويع الخيال القصصي ليكون سلطة نقدية واعية تعكس عمق الارتباط بين الذات المبدعة وتحولاتها الحضارية.

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches And Scientific Activities
ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

منهجية البحث وادواته:

لتحقيق الغايات المعرفية لهذا البحث، يعتمد الباحث على تكاملٍ منهجيٍ يزاوج بين الرصد الأدبي والتحليل الثقافي، حيث يمثل المنهج الوصفي التحليلي الركيزة الأساسية في استقراء النصوص النثرية القصصية وتفكيك بنية سردها ومكوناتها الجمالية، مع الاستعانة بمعطيات المنهج الاجتماعي (Sociological Approach)لاستبطان العلاقة الجدلية بين النص والسياق، وكيفية انعكاس التحولات الطبقية والسياسية في المتخيل القصصي؛ كما يوظف البحث أدوات النقد الثقافي للكشف عن الأنساق المضمرة والأنظمة المعرفية غير المصرح بها، والتي مررها الأديب المملوكي عبر أقنعة السجع والكدية. وتتحدد أدوات البحث في رافدين :الأول مصدرِي يتمثل في أمهات المتون القصصية والمقامات والسير التي دونت في العصر المملوكي، والثاني مرجعي يستند إلى الدراسات النقدية الحديثة وكتب التأريخ الاجتماعي والسياسي للحقبة المملوكية، وذلك بهدف الوصول إلى رؤية نقدية شاملة تفسر كيف تحولت الكلمة القصصية إلى قوة ناعمة واجهت تقلبات العصر وأزماته الحضارية.

حدود البحث:

تتحدد معالم هذه البحث ضمن أطر زمنية ومكانية وموضوعية دقيقة تضمن تركيز البحث وعمقه الأكاديمي بما يلائم متطلبات الترقية العلمية؛ حيث ينحصر الحد الزماني في العصر المملوكي بفرعيه (المماليك البحرية والمماليك البرجية)، وهي الفترة الممتدة من سقوط الدولة الأيوبية (648هـ/1250م) حتى الفتح العثماني (923هـ/1517م)، لما شهدته هذه الحقبة من تحولات سوسيو–سياسية كبرى انعكست على بنية النثر. ويتعين الحد المكاني في الحواضر الثقافية الكبرى للدولة المملوكية، وتحديدا (مصر والشام)، بوصفهما مراكز الإشعاع الأدبي والنشاط القصصي آنذاك. أما الحد الموضوعي فيقتصر على دراسة النثر القصصي بمختلف تجلياته الفنية (المقامات، الحكايات الشعبية، القصص الرمزي، والرسائل ذات الطابع السردي)، مع التركيز على تحليل الأنساق والدلالات المرتبطة بالواقع الاجتماعي والسياسي، مما يخرج عن نطاق هذه البحث أي فنون نثرية أخرى كالنثر الديواني المحض أو الخطابة، أو النتاج الأدبي في عصور سابقة أو لاحقة.

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches
And Scientific Activities

ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

الدراسات السابقة:

1- دراسة (محمود رزق سليم): بعنوان: عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي" هدفت البحث إلى تقديم مسح شامل للحياة الثقافية في العصر المملوكي ورصد علاقة الأدباء بالسلطة، واعتمدت المنهج التاريخي الوصفي في تتبع الظواهر الأدبية. خلصت النتائج إلى أن الأدب المملوكي كان مرآة صادقة للحياة العامة والاحتفالات والحروب، وأثبتت غزارة الإنتاج النثري وتنوعه، إلا أنها ركزت على التوثيق التاريخي أكثر من التحليل الفني للأنساق القصصية العميقة. (1)

2- دراسة (عبده عبد العزيز قلقيلة) بعنوان: "المقامة في الأدب العربي" استهدفت البحث تتبع نشأة وتطور فن المقامة منذ بديع الزمان وصولا إلى العصر المملوكي، مطبقة المنهج الفني التحليلي على البنية السردية للمقامات. توصلت النتائج إلى أن المقامة المملوكية حافظت على الهيكل التقليدي لكنها أغرقت في المحسنات اللفظية، وأشارت البحث إلى تحول المقامة لغرض التعليم اللغوي، بينما يسعى بحثنا الحالي لإثبات أبعادها السياسية الناقدة. (2)

3- دراسة (فوزي أمين) بعنوان: "النثر الفني في العصر المملوكي" سع البحث إلى استجلاء الخصائص الأسلوبية والجمالية للفنون النثرية المملوكية وكشف التطور في لغة الكتاب، واتبعت في ذلك المنهج الأسلوبي بآلياته الإحصائية والوصفية. خلصت البحث إلى أن النثر المملوكي امتلك قدرة فائقة على التكيف مع البيئة المحلية، وأثبتت أن السجع لم يكن دائما عائقا بل كان وسيلة للإيقاع، مما يمهد لبحثنا في تحليل وظيفة هذا الإيقاع سوسيو-سياسيا. (3)

4- دراسة (نبيلة إبراهيم) "أشكال التعبير في الأدب الشعبي" هدفت البحث إلى تحليل البنية الحكائية للسير الشعبية والقصص العامي في العصر المملوكي، مستخدمة المنهج الأنثروبولوجي والاجتماعي توصلت النتائج إلى أن الحكاية الشعبية كانت تمثل صوت المهمشين وسلاحا معنويا ضد المظالم الاجتماعية، وأكدت أن البطل الشعبي في القصص المملوكي كان تجسيدا لرغبة المجتمع في التغيير، وهو ما يخدم بحثنا في جزئية الأبعاد الاجتماعية. (4)

5- دراسة (أحمد بدوي) بعنوان: "الحياة الأدبية في عصر المماليك" هدفت البحث إلى رصد القيم الفنية والاجتماعية التي شكلت الأدب المملوكي وربط النص ببيئته الجغرافية"، واعتمدت المنهج

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches
And Scientific Activities

ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

الموضوعي في تصنيف الأغراض الأدبية. خلصت النتائج إلى وجود ارتباط عضوي بين الأديب المملوكي وهموم مجتمعه، وأبرزت دور المدارس والمساجد في صياغة الفكر النثري، لكنها بقيت في إطار الموضوعات الظاهرة دون الغوص في الأنساق الثقافية المضمرة. (5)

6- دراسة (حسين عبد العال اللهيبي): الخطابة والنثر في العصور الوسيطة"، استهدفت البحث تحليل البناء الفني للنصوص النثرية في العصور المتأخرة وكشف آليات التأثير في الجمهور، واتبعت المنهج البنيوي اللساني .انتهت البحث إلى نتائج تؤكد براعة الأديب في استثمار الجرس الموسيقي والتناص الديني لجذب المتلقي، وأثبتت أن جماليات النص كانت مرتبطة بـ بلاغة التلقي، وهو ما يتقاطع مع بحثنا في تحليل دلالات هذه الأساليب وأثرها السياسي. (6)

من خلال القراءة الفاحصة للمنجز النقدي الذي قارب النثر في العصر المملوكي، يتبين أن الدراسات السابقة قد استطاعت ردم هوة كبيرة في تاريخ الأدب العربي عبر التوثيق لمرحلة وصمت طويلا بالانحطاط، إلا أن المتأمل في تلك الجهود يلحظ انقسامها إلى اتجاهين رئيسين: الأول اتجاه تاريخي وصفي (كما لدى سليم وبدوي) غلب عليه رصد الظواهر وجمع المتون الأدبية دون النفاذ إلى عمق الأنساق الثقافية، والثاني اتجاه فني أسلوبي (كما لدى قلقيلة وأمين) انصرف إلى تحليل البنية اللسانية والمحسنات البديعية بوصفها غاية جمالية في ذاتها؛ مما ترك مسافة بحثية شاسعة في تحليل الوظيفة السياسية والاجتماعية التي كان يؤديها النص القصصي كفعل مقاومة أو كاستراتيجية للمراوغة السلطوية.

ومن هنا، تأتي هذا البحث لتضيف لبنة نوعية تتمثل في المقاربة السوسيو-سياسية التي تتجاوز الرصد الفني الظاهر لتستنطق الأنساق المضمرة؛ فهي لا تدرس التحولات في البنية القصصية كفعل تطور أدبي معزول، بل بوصفها استجابة فنية لتقلبات العصر، وما ستضيفه هذه البحثهو الكشف عن كيفية تحول (السجع، والكدية، والرمز الحيواني، والمقامة) من مجرد زخرفة لفظية إلى أقنعة أسلوبية ووسائط ثقافية مرر من خلالها الأديب المملوكي خطابه النقدي تجاه السلطة العسكرية والتحولات الطبقية الحادة، وبذلك يسعى البحث الحالي إلى الانتقال بالنثر القصصي المملوكي من حيز الأدب الهامشي إلى حيز الأدب المركزي المؤثر، مبرهنا على جِدة البحث في قدرته على الربط بين التشكيل الجمالي وتداولية الخطاب في بيئة محكومة بجدلية (السيف والقلم).

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches And Scientific Activities
ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

البيئة السوسيو– سياسية وأثرها في تشكيل النثر المملوكي

أولا: الحراك الاجتماعي وتحولات السلطة في عصر المماليك

لم يكن العصر المملوكي مجرد حقبة زمنية عابرة، بل كان تحولا جذريا في بنية السلطة والمجتمع؛ حيث انتقل مركز الثقل من العصبية القبلية أو الشرعية الوراثية إلى العصبية العسكرية القائمة على نظام الرق الوافد. هذا التحول السياسي أفرز بنية اجتماعية طبقية حادة، تربعت على قمتها النخبة العسكرية (المماليك)، بينما تراجعت الفئات العربية المدنية إلى مراتب أدنى في هرم السلطة. (7) وقد اتسم هذا العصر بـ السيولة السياسية نتيجة الصراعات المستمرة بين أمراء المماليك، مما أدى إلى حالة من عدم الاستقرار التي انعكست على الوجدان الشعبي، ودفعت بالنثر القصصي ليكون وسيلة للتعبير عن القلق الوجودي والاجتماعي. ويشير أحمد بدوي إلى أن المجتمع المملوكي كان يغلي بالتناقضات؛ فبينما كانت القصور تشهد بذخا أسطوريا، كان العامة يعانون من الأزمات والمجاعات، وهذا التفاوت الطبقي هو الذي غذى الروح النقدية في القصص الشعبي والمقامات (8) إن هذا الحراك لم يكن سياسيا فحسب، بل كان حراكا سوسيو–ثقافيا أدى إلى ظهور فئات وسيطة من التجار والعلماء حاولوا رصد هذه التحولات عبر تدوين الحكايات التي تمزج بين الواقع والمتخيل (9)

ثانيا: موقع الأديب في البنية الطبقية المملوكية

وجد الأديب العربي نفسه في العصر المملوكي أمام واقع جديد؛ فقد فقد مكانته القديمة كـ لسان حال القبيلة أو نديم الخليفة ذي الحظوة المطلقة، ليصبح موظفا في دواوين الدولة (كتاب الإنشاء) أو مثقفا هامشيا يعيش على الكدية والأدب. هذا التموضع الطبقي جعل الأديب يعيش حالة من الازدواجية؛ فهو من جهة يخدم السلطة العسكرية في دواوينها، ومن جهة أخرى ينتمي وجدانيا إلى الرعية المدنية. (10) ونتيجة لهذا التهميش السياسي للمثقف العربي لصالح السيف المملوكي، التجأ الأديب إلى القلم كأداة للمقاومة الرمزية؛ حيث يذكر فوزي أمين أن الأديب المملوكي استثمر بلاغة النثر القصصي ليصيغ خطابات نقدية مغلفة بالسجع والرمز، هربا من بطش السلطة وتعبيرا عن ضياع مكانته (11) ومن هنا برزت شخصية الأديب الكداء في المقامات، وهي شخصية تعكس في جوهرها انكسار الطبقة المثقفة ومحاولتها الاحتيال على الواقع المرير لتحقيق لقمة العيش، مما حول النص القصصي من مجرد فن جمالي إلى وثيقة احتجاجية تعبر عن أزمة الذات المبدعة في مجتمع يحكمه العسكر (12)

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches And Scientific Activities
ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

المبحث الأول: تحولات البنية السردية في النثر القصصي المملوكي

شهدت البنية السردية في العصر المملوكي تحولات جوهرية مست المعمار الفني للأجناس الأدبية؛ فلم يعد النص القصصي مجرد حكاية خطية، بل استحال إلى فضاء متعدد الأصوات يمزج بين الواقعي والمتخيل. هذا التحول لم يكن ترفا فنيا، بل كان استجابة لضرورات العصر التي فرضت على الأديب ابتكار قوالب سردية قادرة على تمرير المسكوت عنه سياسيا واجتماعيا.

أولا: تطور فن المقامة (من الترف اللفظي إلى النقد الاجتماعي)

لم تقف المقامة المملوكية عند حدود المحاكاة لنماذج الهمذاني والحريري، بل شهدت انزياحا وظيفيا خطيرا. فبينما كانت المقامة قديما تركز على البراعة اللغوية والكدية الفردية، تحولت في العصر المملوكي إلى مقامة موضوعاتية تنقد مؤسسات الدولة والمجتمع.

لقد استثمر أدباء هذا العصر، مثل ابن الوردي والسيوطي، هيكل المقامة لتشريح الواقع؛ فظهرت المقامات الطبية، والمقامات القضائية، ومقامات الآداب. ويرى الدكتور عبده قلقيلة أن المقامة المملوكية، رغم إغراقها في السجع، إلا أنها فارقت العبث اللفظي لتصبح أداة لنقد القضاء والفساد الإداري وصور المعاناة اليومية (13) إن السجع هنا لم يكن زينة، بل كان ستارا أسلوبيا يسمح للأديب بقول ما لا يمكن قوله نثرا مرسلا، حيث تحول بطل المقامة من شحاذ بسيط إلى ناقد سوسيولوجي يرصد تفكك القيم في مجتمع المماليك (14)

ثانيا: الحكاية الرمزية والقصص الحيواني (إعادة إنتاج كليلة ودمنة بصبغة مملوكية)

يعد القصص الحيواني والرمزي في العصر المملوكي من أذكى التحولات السردية؛ إذ لجأ الأدباء إلى أنسنة الحيوان لإسقاط الواقع السياسي عليه. ومن أبرز النماذج كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عربشاه، الذي أعاد فيه إنتاج فلسفة كليلة ودمنة ولكن بروح مملوكية خالصة.

هذا التحول في البنية السردية للرمز سمح للأديب بمعالجة قضية الاستبداد السياسي دون مواجهة مباشرة مع السلطان؛ فالحيوانات في القصص المملوكي تمثل طبقات المجتمع (الأسد للسلطان، والذئاب للأمراء، والحمير للرعية). ويؤكد محمود رزق سليم أن هذا النوع من النثر كان يهدف إلى تقديم نصيحة سياسية مغلفة، حيث يعكس الصراع بين الحيوانات صراع الأجنحة العسكرية داخل

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches
And Scientific Activities
ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

القلعة المملوكية (15) إن إعادة إنتاج هذه القصص بصبغة مملوكية تعني أن البنية السردية أصبحت أكثر تسييسا، حيث تشحن الحكاية بدلالات تشير إلى الفوضى السياسية التي كانت تعقب موت كل سلطان.

ثالثا: تداخل الأجناس (الرسالة القصصية والسيرة الشعبية كأنماط سردية جديدة)

من أبرز سمات التحول في هذا العصر هو انفتاح الأجناس الأدبية على بعضها البعض؛ حيث تلاشت الحدود الفاصلة بين الرسالة والقصة والتاريخ. فظهرت الرسالة القصصية التي تبدأ كخطاب رسمي وتنتهي كحكاية سردية مشوقة، مثل رسائل الصلاح الصفدي وابن نباتة المصري، التي مزجت بين الهم الذاتي والواقع الموضوعي (16)

بالتوازي مع ذلك، شهد العصر المملوكي ازدهار السيرة الشعبية) مثل سيرة الظاهر بيبرس، وسيف بن ذي يزن) كنمط سردي يدمج بين التاريخ الأسطوري والواقع الاجتماعي. هذه السير لم تكن مجرد حكايات للمقهى، بل كانت بنية سردية تعويضية للشعب الذي يعاني من التهميش؛ فصاغ لنفسه أبطالا قصصيين يواجهون الظلم ويحققون العدالة المفقودة (17) هذا التداخل جعل النثر المملوكي نثرا هجينا(Hybrid Prose) ، يجمع بين فخامة اللغة الديوانية وحرارة الحكي الشعبي، مما مكنه من استيعاب تناقضات العصر وتحولاته الكبرى (18)

المبحث الثاني: الأنساق السياسية وتجليات الصراع مع السلطة

يعد العصر المملوكي عصر السيف بامتياز، حيث كانت السلطة تقوم على القوة العسكرية والشرعية المستمدة من حماية الثغور. وفي هذا المناخ الضاغط، لم يكن الأدب القصصي بعيدا عن السياسة، بل تحول إلى فضاء لتفكيك العلاقة بين (المستبد) و(المثقف/الرعية)، من خلال أنساق دلالية تتراوح بين المديح الظاهر والنقد الباطن.

أولا: صورة الحاكم المملوكي في المتخيل القصصي (بين الهيبة والنقد)

تشكلت صورة الحاكم في القصص المملوكي ضمن ثنائية الهيبة السلطانية والنقد المستور. فقد حرصت المقامات والرسائل القصصية على إظهار الحاكم في صورة حامي حمى الدين، إلا أن هذه الصورة سرعان ما كانت تتعرض لـ الكسر السردي عبر إبراز بطش الأمراء وجورهم (19)

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches And Scientific Activities
ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

لقد رسم المتخيل القصصي صورة للسلطان المملوكي تتسم بالغرابة؛ فهو المملوك الذي أصبح ملكا، وهو الوافد الذي يحكم أهل البلاد الأصليين. ويشير أحمد بدوي إلى أن القصص الرمزي كان يصور السلطان أحيانا في صورة الأسد العادل، لكنه في الوقت ذاته يسلط الضوء على الذئاب المحيطة به من الأمراء الذين يفسدون الرعية (20) هذه الصورة المزدوجة كانت تعكس حيرة الأديب بين الرغبة في الاستقرار السياسي تحت ظل سلطة قوية، وبين الألم الاجتماعي الناتج عن قسوة تلك السلطة وتصارع أجنحتها (21)

ثانيا: أنساق المقاومة والمراوغة في الخطاب القصصي (بلاغة الأقنعة)

نظرا لسطوة الرقابة السياسية، ابتكر الأديب المملوكي ما يمكن تسميته بـ بلاغة الأقنعة؛ وهي استراتيجية سردية تعتمد على التخفي خلف الرمز للهروب من العقاب. ففي كتاب عقلاء المجانين أو قصص الحيوان، نجد أنساقا لمقاومة السلطة تمر عبر لغة المجانين الذين يرفع عنهم القلم، أو عبر ألسنة الطيور والوحوش.

هذا القناع السردي هو نوع من المقاومة السلبية التي تهدف إلى التغيير عبر التوعية لا المواجهة. ويؤكد الدكتور قلقيلة أن الأديب المملوكي استثمر المقامة لتمرير خطاباته السياسية، فجعل البطل (المحتال) يسخر من منظومة القيم التي أرساها المماليك، وهو ما يعد تسييسا لغويا بارعا (22) إن المقاومة هنا لم تكن بالسلاح، بل بـ الأنساق المضمرة التي تعيد تشكيل وعي المتلقي تجاه السلطة، وتنزع عنها ثوب القداسة عبر السخرية السوداء (23)

ثالثا: القصة بوصفها سلطة مضادة: نقد البيروقراطية والفساد الإداري

لم يتوقف النقد عند شخص الحاكم، بل امتد ليشمل جهاز الدولة؛ حيث تحول النثر القصصي إلى سلطة مضادة تراقب أداء القضاة، والمحتسبين، والوزراء. ففي المقامات التي تناولت القضاء (مثل مقامات ابن الوردي)، نجد تعرية كاملة للفساد الإداري والرشوة التي استشرت في الدواوين.

ويذكر فوزي أمين أن القصص المملوكي نجح في تصوير البيروقراطية العقيمة؛ حيث يصور الأديب في رسائله القصصية معاناة المثقف في الحصول على حقه داخل دهاليز الحكم (24) هذا النقد الإداري لم يكن مجرد شكوى فردية، بل كان نسقا اجتماعيا يعبر عن تآكل العدالة؛ لذا نجد السير الشعبية (كسيرة بيبرس) تعيد بناء الدولة في الخيال، فتجعل البطل يحاسب المفسدين الذين عجز

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches
And Scientific Activities
ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

الواقع عن محاسبتهم (25) وبذلك، أصبح النص القصصي هو المحكمة البديلة التي يلجأ إليها الشعب لاسترداد كرامته المهدورة بين مطرقة السيف وسندان الفساد (26)

المبحث الثالث: الأنساق الاجتماعية ودلالات التحول الطبقي

لم يكتفِ النثر القصصي المملوكي برصد التحولات السياسية، بل كان مختبرا سوسيولوجيا بامتيازاستطاع أن يسجل الحراك الاجتماعي العنيف الذي طرأ على بنية المجتمع العربي آنذاك. فقد أدى تغلغل المماليك في مفاصل الدولة إلى خلق فجوات طبقية عميقة، دفعت بالأديب إلى الالتفات نحو الهامش وتصوير الفئات التي سقطت من حسابات التاريخ الرسمي.

أولا: تمثيلات الهامش (شخصية المحتال والكداء ودلالاتها الطبقية)

تعد شخصية المحتال أو الكداء في المقامات والقصص المملوكي (مثل مقامات السيوطي وابن الوردي) النسق الاجتماعي الأكثر تعبيرا عن أزمة العصر. فالمحتال هنا ليس مجرد شخصية كاريكاتورية، بل هو تجسيد لـ انكسار الطبقة الوسطى وفشل المثقف في الحصول على عيش كريم بوسائل مشروعة (27) إن الدلالة الطبقية لهذه الشخصية تكمن في كونها صرخة احتجاج ضد الاحتكار المملوكي للثروة؛ فالبطل يلجأ إلى الحيلة واللسان الفصيح لانتزاع لقمة العيش من أيدي الأغنياء. ويؤكد الدكتور فوزي أمين أن شخصية الكداء في هذا العصر تعكس التحلل في المنظومة الاقتصادية، حيث يصبح الذكاء اللغوي هو الرأسمال الوحيد المتبقي للمثقف المهمش (28) وبذلك، فإن نسق الكدية في القصص المملوكي هو في حقيقته تحليل سوسيولوجي لظاهرة الفقر والبطالة المقنعة التي ضربت أطنابها في تلك الحقبة (29)

ثانيا: الفئات المهنية والحرفية في القص المملوكي (رصد الوجدان الشعبي)

انفتحت القصة المملوكية، وبخاصة الحكايات الشعبية وألف ليلة وليلة (في نسختها المملوكية)، على عالم أرباب الحرف بشكل غير مسبوق. فظهرت قصص الصناع، والتجار، والحمالين، والحلاقين، كشخصيات محورية تحرك الأحداث. هذا التحول السردي يعكس صعود القوة المدنية وصوت العامة في الحواضر الكبرى.

لقد رصد الوجدان الشعبي عبر هذه القصص تفاصيل الحياة اليومية وتحديات المهن؛ فكانت القصة وسيلة لتخليد ثقافة السوق ومنظومة القيم الخاصة بالحرفيين. ويشير أحمد بدوي إلى أن هذا النمط من القص قدم صورة دقيقة للتنظيمات الحرفية (الطوائف) وللعلاقة الجدلية بين المحتسب وأصحاب

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches
And Scientific Activities
ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

المهن، مما حول النص الأدبي إلى وثيقة اجتماعية تعوض نقص المعلومات في كتب المؤرخين الذين انشغلوا بأخبار الأمراء (30) إن الحكاية هنا أصبحت ديوانا للعامة تحفظ هويتهم المهنية وصراعاتهم اليومية مع الجباة والمماليك (31)

ثالثا: الأنساق القيمية والتحولات الأخلاقية في ظل الأزمات (المجاعات والأوبئة وأثرها في السرد)

شهد العصر المملوكي موجات متعاقبة من المحن الطبيعية، كالأوبئة (الطاعون الأسود) والمجاعات الناتجة عن نقص فيضان النيل. هذه الأزمات أحدثت زلزالا في الأنساق القيمية، وهو ما رصده النثر القصصي بعمق مأساوي. فظهرت قصص تعكس تحلل الروابط الأسرية، وظواهر الغش، واليأس الوجودي. لقد تحول السرد في ظل هذه الأزمات إلى ما يشبه أدب الكوارث؛ حيث يصف المقريزي في رسائله ذات الطابع القصصي كيف غيرت المجاعة طباع الناس وأخلاقهم (32) ويؤكد النقاد أن الأنساق الأخلاقية في القصص المتأخرة مالت نحو الزهد تارة، ونحو السخرية العدمية تارة أخرى، كتعبير عن العجز أمام الموت الجماعي. هذا التحول في السرد يعكس دلالة سياسية واجتماعية خطيرة؛ وهي أن الدولة المملوكية لم تستطع حماية الرعية، مما دفع الأديب لتصوير تلك الفوضى الأخلاقية بوصفها نتيجة حتمية للفشل الإداري والسياسي (33)

الخاتمة:

أن النثر القصصي في العصر المملوكي مثّل ظاهرة أدبية وثقافية مهمة عكست طبيعة التحولات السياسية والاجتماعية والفكرية التي شهدها ذلك العصر. فقد استطاع الأدباء توظيف الأشكال السردية المختلفة، ولا سيما المقامات والحكايات الرمزية، للتعبير عن قضايا المجتمع وانتقاد بعض المظاهر السلبية بأساليب فنية غير مباشرة. كما كشفت الدراسة أن النثر القصصي لم يكن مجرد إنتاج أدبي ترفيهي، بل أسهم في نقل الواقع الاجتماعي وتصوير أحوال الناس ومعاناتهم وتطلعاتهم، معتمداً على الرمز والإيحاء والخيال الفني. وأكدت الدراسة كذلك أن هذا اللون الأدبي شهد تطوراً ملحوظاً في البناء السردي واللغة والأساليب التعبيرية، الأمر الذي أسهم في إثراء التراث الأدبي العربي ومهّد لظهور أشكال سردية أكثر تطوراً في العصور اللاحقة. ومن ثم فإن النثر القصصي في العصر المملوكي يمثل مرحلة مهمة في مسيرة تطور السرد العربي تستحق المزيد من الدراسة والبحث للكشف عن أبعادها الفنية والفكرية والحضارية.

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches And Scientific Activities
ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

النتائج:

1. أن النثر القصصي في العصر المملوكي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالظروف السياسية والاجتماعية السائدة، وعكس طبيعة التحولات التي شهدها المجتمع آنذاك .
2. أن المقامات والحكايات الرمزية شكلت وسيلة فنية فعالة للتعبير عن النقد الاجتماعي والسياسي بصورة غير مباشرة .
3. اعتماد الأدباء على الرمز والتلميح والأقنعة السردية لتجاوز القيود المفروضة والتعبير عن آرائهم وأفكارهم .
4. أن النثر القصصي أسهم في تصوير حياة الفئات الاجتماعية المختلفة وإبراز مشكلاتها وقضاياها اليومية .
5. وجود تطور واضح في البناء الفني للنصوص القصصية من حيث الحبكة والشخصيات والأساليب البلاغية .
6. أن النثر القصصي المملوكي أسهم في تمهيد الطريق لتطور السرد العربي الحديث من خلال ما تضمنه من تجديد فني وفكري .

التوصيات:

1. إعادة دراسة النثر القصصي في العصر المملوكي بعيداً عن الأحكام التقليدية التي تصفه بعصر الانحطاط الأدبي .
2. تشجيع الباحثين على تحقيق المخطوطات والرسائل القصصية المملوكية غير المنشورة وإتاحتها للدراسة العلمية .
3. توسيع الدراسات المقارنة بين النثر القصصي المملوكي والأشكال السردية العربية الحديثة للكشف عن أوجه التأثير والتطور .
4. الاهتمام بدراسة الأبعاد الاجتماعية والسياسية للنصوص القصصية المملوكية وربطها بسياقاتها التاريخية والحضارية .
5. توظيف المناهج النقدية الحديثة في تحليل النصوص السردية المملوكية لإبراز قيمتها الفنية والفكرية .
6. دعم البحوث الأكاديمية التي تتناول الرمزية والتقنيات السردية في الأدب المملوكي لما لها من أهمية في فهم تطور السرد العربي .

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches And Scientific Activities
ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

الهوامش:

(1) محمود رزق سليم :*عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي*، القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 1947م (أو طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003م).

(2) عبده عبد العزيز قلقيلة :*المقامة في الأدب العربي*، القاهرة: دار الفكر العربي، ط2، 1992م.

(3) فوزي أمين :*النثر الفني في العصر المملوكي*، الإسكندرية: منشأة المعارف، ط1، 1998م.

(4) نبيلة إبراهيم :*أشكال التعبير في الأدب الشعبي*، القاهرة: دار المعارف، ط3، 1981م (أو دار غريب للنشر، 2000م).

(5) أحمد بدوي :*الحياة الأدبية في عصر المماليك*، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، 1960م.

(6) حسين عبد العال اللهيبي :*فن الخطابة في العصور المتتابعة (الزنكي والأيوبي والمملوكي): دراسة أسلوبية*، مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي – جامعة أم القرى، 2014م.

(7) محمود رزق سليم :*عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي*، القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 1962م، ج1، ص 45.

(8) أحمد بدوي :*الحياة الأدبية في عصر المماليك*، القاهرة: دار نهضة مصر، ط2، 2005م، ص 112.

(9) نبيلة إبراهيم :*أشكال التعبير في الأدب الشعبي*، القاهرة: دار غريب للنشر والتوزيع، 2000م، ص 88.

(10) فوزي أمين :*النثر الفني في العصر المملوكي*، الإسكندرية: منشأة المعارف، ط1، 1998م، ص 134.

(11) فوزي أمين :*المرجع نفسه*، ص 136.

(12) عبده عبد العزيز قلقيلة :*المقامة في الأدب العربي*، القاهرة: دار الفكر العربي، ط1، 1972م، ص 210

(13) عبده عبد العزيز قلقيلة :*المقامة في الأدب العربي*، القاهرة: دار الفكر العربي، ط1، 1972م، ص 215.

(14) فوزي أمين :*النثر الفني في العصر المملوكي*، الإسكندرية: منشأة المعارف، ط1، 1998م، ص 142.

(15) محمود رزق سليم :*عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي*، القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 1962م، ج2، ص 310.

(16) فوزي أمين :*المرجع نفسه*، ص 158.

(17) نبيلة إبراهيم :*أشكال التعبير في الأدب الشعبي*، القاهرة: دار غريب للنشر والتوزيع، 2000م، ص 104.

(18) سعيد يقطين :*الفكر الأدبي العربي: قراءات في السرد والنوع والبيئة*، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2010م، ص 145.

مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches And Scientific Activities
ملحق العدد الثالث عشر
تاريخ الاستلام Received 14-4-2026
تاريخ القبول Accepted 27-4-2026
تاريخ النشر published 18-5-2026

(19) محمود رزق سليم :*عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي*، القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 1962م، ج2، ص 188.

(20) أحمد بدوي :*الحياة الأدبية في عصر المماليك*، القاهرة: دار نهضة مصر، ط2، 2005م، ص 241.

(21) فوزي أمين :*النثر الفني في العصر المملوكي*، الإسكندرية: منشأة المعارف، ط1، 1998م، ص 210.

(22) عبده عبد العزيز قلقيلة :*المقامة في الأدب العربي*، القاهرة: دار الفكر العربي، ط1، 1972م، ص 232.

(23) سعيد يقطين :*الفكر الأدبي العربي: قراءات في السرد والنوع والبيئة*، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2010م، ص 162.

(24) فوزي أمين :*المرجع نفسه*، ص 215.

(25) نبيلة إبراهيم :*أشكال التعبير في الأدب الشعبي*، القاهرة: دار غريب للنشر والتوزيع، 2000م، ص 118.

(26) سعيد يقطين :*المرجع نفسه*، ص 168.

(27) عبده عبد العزيز قلقيلة :*المقامة في الأدب العربي*، القاهرة: دار الفكر العربي، ط1، 1972م، ص 245.

(28) فوزي أمين :*النثر الفني في العصر المملوكي*، الإسكندرية: منشأة المعارف، ط1، 1998م، ص 255.

(29)محمود رزق سليم :*عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي*، القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 1962م، ج2، ص 322.

(30) أحمد بدوي :*الحياة الأدبية في عصر المماليك*، القاهرة: دار نهضة مصر، ط2، 2005م، ص 280.

(31) نبيلة إبراهيم :*أشكال التعبير في الأدب الشعبي*، القاهرة: دار غريب للنشر والتوزيع، 2000م، ص 132.

(32) سعيد يقطين :*الفكر الأدبي العربي: قراءات في السرد والنوع والبيئة*، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2010م، ص 180.

(33) فوزي أمين :*المرجع نفسه*، ص 272.